أدونيس بين الحداثة والتراث

– الرؤية والموقف –

زيقم عصام

جامعة الجزائر2

الملخص :

لقد كرس الخطاب الأدونيسي النقدي تعاملا فاعلا مع سلطة الموروث الشعري بتمظهراته المختلفة والمتشعبة ، تفاعلا أساسه الجدل والرفض والنقض وإعادة القراءة .وما المقاربات الفلسفية والمعرفية والجمالية التي استخدمها في ذلك الحوار الفاعل معها ، وكذا أدواته التشريحية وإجراءاته المنهجية التي تسم خطابه ، إلا محاولة منه لقراءة التراث قراءة جديدة

تساير الحداثة الغربية بشكل عام ، وذلك باعتباره منظومة معرفية تشتغل وتتفاعل مع محيطها السيسيولوجي الثقافي العام ماضيا وحاضرا واستشرافا للمستقبل .

le discours adonis critiqueur a consacre une interactions efficace avec le pouvoir héritage de la poésie sur ces dimensions différente et ramification, avec une efficacité qui est basé sur la polémique (débat) et la démolition et la répétition de lecture , et aussi les approches philosophiques et le savoir et la beauté qui la fait avec le dialogue et qui a connu une meilleur moyens avec celle ci Ainsi ces outils d'explications qui est caractérisé son discours avec la lecture de patrimoines et aussi des nouvelles lectures qui facilites les conversations étrangères d'une maniére générale Cela est considéré comme une composante de savoir quelle a une place et occupé sue le territoire sisioligique culturel général au passé et au présent et avec une fierté au future.

1/ إشكالية قراءة التراث

إن الناظر إلى الأصول والمنطلقات الحداثة الأدونيسية يدرك تماما أنها قامت على أساس ابتغاء التحول ، والدعوة إلى الصيرورة منعتقة من الثابت والمؤصل في صياغة جدلية ، تتخذ من فعل الخرق والرفض مذهبا وتقويضا للمسلمات مسلكا عبر إيديولوجية لا تؤمن إلا بالهدم من أجل

البناء والتأسيس الحر ، ولن يتأتى ذلك إلا من خلال اصطناع أدوات مناسبة لعملية الهدم تلك :أدوات لغوية باسم تفجير اللغة وتأنيثها وتحريك معجميتها ، وأدوات إيديولوجية تجزم بحتمية الصيرورة الدائمة ، تستهدف التشكيك في التاريخ الثابت ، كما تستهدف إحياء الأقليات المارقة القرامطة ، الخوارج ، الصعاليك) وذلك ضمن إستراتيجية إعلاء شأن المهمّش والمقصي بحيث يمكن " اعتبار كل ما هو هامشي مركزيا حينما ينظر إليه من وضع مختلف "[1] لكن هذا الانتقال الذي يعطي أهمية للمهمّش في حرصه على خلق مركزية جديدة ، يسعى في المقابل إلى تخريب الفوارق بين ما هو سلطوي ثابت و ما هو ثوري (تحولي)

وإذا كان أدونيس يربط بين إبداعه وبين تجاوز التراث عبر مساءلة هذه المنظومة الفكرية المعرفية العظيمة وذلك عبر ثلاث مبادئ رئيسية ألا وهي : مبد أ الأصول ، ومبدأ التساؤل ،ومبدأ التحول .ليصل في الأخير أن الحداثة هي فلسفة تأصيل الأصول ، ثم إثبات نظريته في التحول رغبة منه " قول ما لم يعرفه موروثنا انطلاقا من لا نهائية المعرفة ، ولا نهائية الكشف وتأكيد ا لمبدأ المغايرة والاختلاف والتعدد ، واعتمادا على الحاضر واستشراف المستقبل خلافا للنظرة السلفية التي تجعل الماضي حاضرا

باستمرار وتجعل النص متحكما بالواقع ، ولا تكيفا معه ليلغي صلاحية الشريعة لكل زمان مكان "[2]

وعليه تصبح نظرية الإبداع عند أدونيس قائمة على فرضية التساؤل حول الأصل ، التساؤل الذي يجعل" اللحظة الإبداعية لا تتطابق بالضرورة مع اللحظة التاريخية ،أو التراثية ، بل يمكن أن ف .....ومن هنا نفهم كيف أن لحظة الأثر الفني ليست بالضرورة لحظة الذوق السائد " وهذا النوع من التساؤل هو ما جعل أدونيس يرى أن" خصوصية العربي ليست فيما يميزه عن العالم ، وإنما هي فيما يميزه لحظة يشارك بطاقاته كلها في صنع العالم ، أما من ناحية الارتباط بالتراث فيجب أن يكون مع التحول : مع عناصره الأولى وآفاقه وقيمها في مدى قدرتها على أن تكون جزءا من المستقبل " [3]

وهنا يجعل التراث جزءا من الحاضر وقناة لاستشراف المستقبل ، التراث الحي حسب أدونيس الذي يتحرك نحو الأمام نحو التغير المستمر .

وبالتالي يكون هذا الوعي أساسيا مفاده أن الارتباط بالماضي وعدم خلق حوار مع متعالياته هو قتل لروح الفكر العربي ، لذلك كان التغيير عملية تكرس هدما للبنية القديمة بجميع معارفه ، لأن كلّ " معرفة تؤخذ في

لحظة تكونها هي معرفة سجالية ، ولا مناص لها من التحطيم أولا حتى تفسح المجال أمام بناءاتها ، وغالبا ما يكون التحطيم كليا والبناء ناقصا "[4]. وعليه فقد انطلق أدونيس في تعامله مع المنظومة القافية العربية من

الأطر المعرفية التي تدعو إلى تبني الحداثة ومساندتها ، وذلك ليكسبها مشروعيتها لدى القارئ من خلال العلاقة بالماضي وهنا تظهر المفارقة في حداثة أدونيس .

فإذا كان معظم الحداثيين قد أعلنوا انفصالهم التام عن التراث ، ودعوا إلى القطيعة مع المؤسسات البنية القديمة كشرط أساسي لمعطى الحداثة " نجده يعلن أن الحداثة لا تعني دائما القطيعة فهي مرتبطة بتراكم ونمو معرفي قوامه الإبداع والتجدد الدائم " وهنا يؤكد الناقد كمال أبوديب حين يقول " إن انشغال أدونيس الدائم بمشكلة علاقة الشاعر الحديث بشكل خاص وبالماضي وعلاقة الثقافة العربية المعاصرة ، بشكل عام وبالماضي تجسيد باهر لمفارقة حادة تكمن في صلب من الثقافة العربية ، هي استحالة الانفكاك عن الماضي في تياراته الرئيسية المتكونة ، ذلك أن الرئيس جنب إلى جنب انشغاله بالماضي هو الشاعر الأكثر تأكيدا على

ضرورة تجاوز الماضي الأكثر تأكيد أن جوهر الحداثة والإبداع والشعر هو الإنخطاف بالمستقبل والحركة نحوه "[5] وهنا يظهر أن الخطاب الأدونيسي هو منحى يتجه نحو الاستمرار والتغير والجنوح نحو المستقبل .

وتبعا لهذا المنحى نجد من الضروري قبل الشروع في بيان آليات الحداثة الأدونيسية ومستويات الممارسة الفكرية والفنية الجمالية لإستراتيجية التحول _ بوصفها القيمة الفاعلة في حداثة أدونيس_ أن نبين أولا موقف الناقد من التراث لأن في ذلك إضاءة كبيرة لجوانب عديدة في فكر أدونيس النقدي والفكري .

2/ موقف أدونيس من التراث والحداثة

إن الخطاب الاندونيسي هو خطاب تمردي على البنية العربية الثقافية ، فهو يؤكد دوما على أهمية الماضي والتراث في تشكيل الوعي العربي المعاصر ، فيرسم لنا العلاقة الانفعالية الموجودة بين ثنائية الماضي والحاضر فيقول : " أعرف السلطان الذي يمارسه الماضي علينا لكن أعرف أن هناك ماضيا وماضيا ، والإنسان من جهة لا يقدر أن يتجاوز الماضي لأنه في دمه ، لكنه من جهة لا يكشون حاضرا حيا ما لم يتجاوزه ، الإنسان الحي هو المتصل بماضيه المنفصل عنه في آن "[6]

وعليه فالحداثة التراثية عند أدونيس ليس الامتثال للتراث ولكن التجاوز نحو الحاضر وجعل الماضي نافذة للاستشراف المستقبل ، وهنا قد حدد الناقد الأهداف التي جعلته يقارب التراث ويمكن حصرها في [7]:

_ اعتبار الشعر فن يتطلع ويتخطى .

_ يجب أن تنشأ مع كل شاعر طريقته التي تعبر عن تجربته وحياته لا أن يرث طريقة عامة نهائية في الشعر .

_ على القارئ أن يرقى إلى مستوى الشاعر ، وليس على الشاعر أن يقدم للقارئ أفكارا بأسلوب يعرفه الجميع

وهنا يصبح المبدع مقلد . وهنا نجد المفكر ينبذ التقليد والإتباع ويجنح نحو الحداثة بكل مواصفاتها.

في حين نرى أدونيس في بعض المواضع يعبر عن فكرة التوازن القائمة بين الطرفين (الماضي والحاضر) ، وفي هذا يقول : " إن التراث أفق معرفي ينبغي استقصاءه باستمرار ، ولكن مفهوماته وطرائق تعبيره غير ملزمة أبدا ، والشاعر الخلاق هو الذي يبدو في نتاجه كأنه طالع من كل نبضة حية في الماضي ، وكأنه في الوقت نفسه شيء يغاير كل ما عرفه هذا الماضي "[8].

وعليه تبدو علاقة الاتصال والانفصال في التعامل مع الماضي (التراث) قاعدة أساسية في تحديد موقف أدونيس من التراث ، الذي يرى أن رؤيتنا للحاضر إنما تنطلق من مساءلة الماضي بوصفه شرطا حيويا من شروط هذه الرؤية ، لكن دون أن يتحول هذا الماضي إلى ثبات وجمود واستهلاك ، وإعادة استهلاك لمنجزات سابقة .

وهنا يمكننا القول أن الموقف من التراث يميزه التفريق بين عناصره الثابتة وعناصره المتغيرة " فنميز الأصول من الإنتاج الحضاري ، كما نميز الاجتهاد إلى قبول مبدأ النقد الذاتي والاتفاق على استئناف الاجتهاد في تمحيص التراث وتنظيره ".[9]

وأدونيس من خلال هذا المنطلق لا يحاول أن يصطنع القطيعة مع متعاليات التراث كما يظهر لدى الكثير من دارسيه ، ذلك أنه لا يسعى إلى الهدم والتقويض دائما بقدر ما يسعى إلى التجاوز الحر الواعي: " إن تجاوزه على الإطلاق ، وإنّما يعني تجاوزا لأشكاله ومواقفه ومفهوماته وقيمه التي نشأت كتعبير تاريخي عن الحالات والأوضاع الثقافية والإنسانية الماضية ، فلم يعد الشاعر ينظر إلى الماضي كنموذج للكمال أو قدسية مطلقة ، صار الماضي يهمه بقدر ما يدعوه إلى الحوار معه ،

وبقدر ما تبدو الطرق التي فتحها طريقنا نحن اليوم كذلك ، وبقدر ما يضيئنا فيما نواجه عتمات الحاضر للسائرين نحو المستقبل "[10]، وهذه إشارة إلى طبيعة القراءة التي انتهجها المفكر في قراءته للتراث فهي قراءة وعي ونقد وتحليل ورفض لا قراءة خضوع واتباع واستلاب.

ولأن قضية التحديث ارتبطت بقضية الصلة بالتراث ، فقد عرفت الأخيرة تنوعا في النظرة وتعددا في الاتجاهات المحددة للتحديث ، وهكذا اختلفت النظرة إلى التراث باختلاف أصحابها " فمن النظرة القومية إلى الإقليمية ، ومن إيديولوجية دينية إلى نزعة علمانية وضعية ، نجد هوية التراث [11]".

وبالتالي نلاحظ التعدد والاختلاف في الخلفيات والمناهج التي تقارب التراث ، وهذا يعمل على اختلاف الدور المنوط بالتراث في القضايا الفنية والنقدية وذلك باختلاف المنطلقات كل بحسب ايديولوجته .

من هنا يظهر موقف أدونيس من التراث أنه يجمع بين موضوعين : الأول رصد تشكيل هذا الموقف ، وهو ضرب من التاريخ ، والثاني هو النظر إليه نظرة القارئ المحلل الذي يتفحص المعرفة القائم عليها ، ولعل في الجمع بين المسعيين محاولة منه إلى استيعاب الجدل الذي ميز العلاقة

بين الثابت والمتحول في الفكر العربي ، وهي العلاقة التي تجمع بين المنظومة الفكرية العربية والسياق التاريخي الذي تنتظم فيه .

وفي هذا الصدد يميز أدونيس في التراث بين مستويين : " الغور والسطح ، والسطح هنا يمثل الأفكار والمواقف والأشكال ، أما الغور فيمثل التفجر والتطلع ، والتغير والثورة ، لذلك ليست مسألة الغور أن نتجاوزه ، بل أن تتصهر فيه ، فالشاعر الجديد إذن منغمس في تراثه ، أي في الغور لكنه في الوقت ذاته منفصل عنه إنه متأصل لكنه ممدود في جميع الآفاق "[12].

وبالتالي فإن الموقف من التراث _ حسب أدونيس _ موقف فاصل بين حركة شعرية وأخرى ، فكل حركة تحدد هويتها انطلاقا من طبيعة العلاقة بالتراث وكيفية التعامل معه ، وهنا لا يصبح :" الموقف مجرد فكرة يتخذها الفرد عن ذاته أو إرادة يشكلها حول واقعه ومحيطه ، وإنما إمكانية العقل في نسج علاقة تنويرية وتأسيسية مع فضائه الإنساني "[13].

وإذا كان الأمر كذلك فإن الماضي من منظر الحداثة ما هو إلا نقطة انطلاق نحو المستقبل في بحث واستكشاف ، من أجل" فهم الحاضر ، وفهم حاضرنا الثقافي فهما عميقا والعمل على تكوين قيم ثقافية جديدة يفترضان ، بدئيا فهم ماضينا الثقافي فهما عميقا "[14] .

وهذا يعني أن أدونيس في عملية مساءلته للتراث ، والقيم الثقافية العربية القديمة لا يعزل ممارسته عن الانطلاق من هذا التراث ، وإنّما يرفض أن نجعل من هذا التراث سلطة تحتكم إليها منجزاتنا الثقافية ، بمعنى أنه يرفض أن يصبح التراث مقياسا مطلقا ، كما يرفض أن تعتبر المؤسسة _ بجميع تمظهراتها سياسية كانت أو اجتماعية _ التراث كأنه إرثها الخاص وبالتالي : " لا قدسية للتراث ، ليس كاملا ....وهو غير ملزم ، إنه حقل ثقافي عمل فيه و ا نتج بشر مثلنا يصيبون ويخطئون ، يبدعون ويبتدعون ، والحكم لهم أو عليهم يعني حكما على نتاجهم المحدد أوله ، ولا يعني الحكم على الشخصية العربية أو لها ، لذلك يمكن أن ينهض شاعر عربي اليوم أو فيلسوف عربي يضيف إلى التراث الشعري أو الفلسفي جديدا لم يعرفه الماضي ،وقد يكون أعظم مما عرفه ، دون أن يعني ذلك أنه يهدم هذا التراث أو يرفضه "[15].

يدرك أدونيس تماما أية صعوبة تعترض الباحث الذي يعمل على إعادة قراءة التراث والثقافة العربية وفق منظرو جديد وهو يعترف أن من يعيد تقويم هذه الثقافة هو : " كمن يسير في أرض ملغومة : يجد نفسه محاصرا بالمسلمات ، وبالقناعات التي لا تتزحزح ، بالإنحيازات للأحكام المسبقة "[16] وهنا تكمن أزمة الثقافة العربية ، أزمة تحول فيها النص

القرآني إلى سلطة تفترض وجود علاقات معينة تربط الحاضر وكذا المستقبل بالماضي ، والتراث _ تأسيسا على ذلك _ هيئة لها قوانينها وسلطانها ، والحاضر هو دائما ذلك المدان ، وعليه فعلاقة الحاضر بالماضي هي علاقة محاكمة " إما الخضوع والتبعية لسلطان الماضي ، وهذا هو الاهتداء ، وإما رفض الخضوع ، وهذا هو المروق أو الخروج "[17].

لذا فالمتتبع لمسار أدونيس يلاحظ أن موقفه من التراث قائم على ثنائية جدلية هي الاتصال و الانفصال، اتصال، لأنه يرى أن أي مشروع لا يمكن أن يقوم على فراغ أو على البداية من الصفر ، وهي القطيعة مع الأنساق السابقة و البنى القديمة التي كانت تعمل خلالها ، وهذا يعني أننا إذا سلمنا بأن الحداثة مولود فإن :" هذا المولود لكي يكون شرعيا ، لابد أن يكون له أب وأم يحمل سماتهما واسمهما . ولكنه ليس لهما في ذات الوقت "[18].

إن الأسس الفلسفية للرؤية والإستراتيجية التي بنى عليها الباحث أحمد على سعيد (أدونيس) موقفه هي رؤية تستند إلى نزعة وضعية علمانية ، ترتبط بسياقها التاريخي العام الذي هو سياق ق الحداثة ، وفصلها بين

نمط الوعي العربي المعاصر ، الغيبي الموروث عن الماضي ،والوضعي المستنير بالعلم .وإذا كانت هذه الرؤية الفلسفية قد وسمت موقف أدونيس من الفن والحياة والوجود ومن الماضي والحاضر والمستقبل ، فإنه لا يمكننا أن نلغي الأسس الروحية لهذه الرؤية ذلك أنه كان ينهل من مناخ التصوف " حتى لكأنه يغيب حينا في مواقف النفرى"[19] ويستثير في مواقف كثيرة من خلال الذاكرة الصوفية ، إذ أن علاقة أدونيس بموروثه الصوفي هي علاقة وجدانية ، إلا أن هذا لا ينفي أبدا العناصر الفكرية التي تلتقي فيها الرؤية الصوفية الباطنية مع الرؤية الحداثية الغربية.

أما الأسس الفنية والجمالية التي بنى عليها أدونيس موقفه من التراث فإنها أسس يميزها _كما أشرنا سابقا _ جدل الانفصال والاتصال بين العناصر الذاتية والإيديولوجية التي تقود عملية توجيه الذات نحو القيم الفنية الجديدة ، قيم الثورة والتحول والإبداع والخلق .

غير أن الأسس قد حملت في ذاتها عوائقها الخاصة، وهي عوائق يفرزها المنهج ذاته ، منهج الفكر الحداثي ، خاصة حينما نجده يفصل بين الجمال الفني وموضوعه ، إذ نجده يربط الأول بالإبداع ، والثاني بالحداثة

وفي ذلك ما يجرد مفهوم الإبداع ، ويعطيه صفة الإطلاق ، فيما يضفي على الحداثة طبع الموضوع الإيديولوجي .

إنّ قضية التراث في الشعر العربي قضية شائكة ومركزية في كل الدراسات النقدية العربية المعاصرة ، وذلك لأنها قضية وعي لبنية ثقافية تبقى بعض مستوياتها غير قابلة للوعي : " فالشعر مغامرة يريد الشاعر خلالها التعبير باللغة الشعرية عن انفصال أو شعور لم تخلق اللغة البشرية للتعبير عنهما "[20] ، لذا فالعلاقة التي تربط الشاعر بأسلافه تحتوي على عناصر غامضة كما تحتوي على عناصر أخرى مثلت دون شك مادة لاجتهاد النقاد ، ولعل ذلك ما يجعل العلاقة بين فكرة الإبداع ، وتمثل التراث علاقة جدلية فيها من الجذب والنبذ ما يضع حركة التجربة العربية الحديثة ، غير أن اتجاه الكثير من الحداثيين إلى التراث ومحاولة التفاعل معه جدليا ، أفرز مغالطة منهجية :" ذلك أن اتجاه الحداثيين العرب إلى فتح ملف التراث العربي واتجاههم في محاولة تأصيل الحداثة عربيا ، وإعادة اكتشاف الدراسات اللغوية والنقدية العربية ،وإعادة قراءتهم لتراث الفكر العربي فعلوا ذلك لتأصيل حداثة غير عربية "[21].

وهذا ما ينطبق على أدونيس حتى إن نفى ذلك مرارا في العديد من تصريحاته ويصر على حداثته هي حداثة عربية في مستواها الإبداعي والنظري، ويقول :" ثورة الحداثة نظريا هي نتاج عربي ، بمعنى ما ، أي لا يمكن فهمها خارج التأثير العربي أو التحريض العربي ، أو التحدي الذي كان يمثله العرب، بالنسبة إلى الغرب "[22] ، مضيفا أن علاقتنا بالغرب هي علاقة تأثير وتأثر دون أن تعني تبنيا مطلقا لأطروحاته الحداثية " ثم إن تبني الحداثة لا يعني تبنيا للغرب (الاستعماروالإمبريالي) إننا غربيون تعقلنا ، ولا غربيون سياسة أو طرق حياة وتفكير ؛ تماما كما كان الغرب في بدايات نهضته عربيا عقلنة ، ومناوئا للعرب قومية وسياسة ، وهذا التبني أيضا يجب أن يصاحب نقد جذري لأسسها وتطبيقاتها ، وآفاقها "[23].

وعليه فأدو نيس يمارس عملية الانتقاء في أخذه من كل ثقافة ما يتلاءم ومنحاه الفكري والإبداعي ، سواء كانت هذه الثقافة أجنبية أم ثقافية المحلية. وهذا ما ينطبق على إنتاجه في مراحله الأولى ، إذ أن الحداثة الأدونيسية في هذه الفترة لم تتجاوز حد كسب الخبرة ، ونقلها عن المرجع الذي ترتبط به الذات ارتباط إتباع وتقدير ، بينما يعرف الموقف من التراث أول عناصره بالعودة إلى اكتشاف أكثر أشكال التعبير أولية .

لذا فهو عمد في مساءلته للتراث إلى تعديل الصيغ المعبرة عن مضمون الحداثة ، الأمر الذي جعل التصوف مثلا صيغة مرجعية لديه ، ولعل أهم جوانب ارتباط أدونيس بالثقافة العربية هو علاقته بالتراث الصوفي الإسلامي ، ومواقف النفري خاصة ؛ والانجذاب إلى عالم النفري لا يعود إلى إغراء الصور الشعرية التي ترسم مواقفه بقدر ما يعود إلى تلك الصور التي " تضع الصوفي في خطاب مباشر مع الذات العلوية ، ووضع كهذا ربما صاحبته القدرة على الكتابة التلقائية " [1]التي ينشدها أدونيس ، وإن كان هذا النزوع موسوما بنزعة والسوريالية ، في إعلائها شأن الروحانيات وإنشادها للحرية ، وهو شأن أدونيس نفسه ، ولعل في هذا مايشير " إلى فكرة مبطنة هي ارتياد المجهول والكشف عن المطلق وأسراره ، وهي فكرة مركزية عند أدونيس لاسيما بعد تأثره بالصوفية شرقا والسوريالية غربا لذا نراه في تخطيطه الجمالي / الفكري يسعى لإبراز هذا المنحى الفلسفي ، من خلال حفرياته في التراث واتخاذه من شخصياته رموزا شعرية ، كان همها الأساسي ارتياد المجهول والمناطق المحرمة ، والنطق بما هو مسكوت عنه ولا مفكر فيه "[24].

والأكيد أن أدونيس المنشغل دوما بالمهمّش في التراث قد اطلع على المذاهب الفكرية للطوائف الإسلامية لاسيما الباطنية منها ووجد في

الصوفية تحديدا ما يغذي مشروعه في نقد العقل العربي وتقويض سلطة الفقه ، سلطة معاداة الاجتهاد والإبداع " هذا الرفض للدين الفقهي المكرس للقواعد والقوانين قابله الرغبة في الصوفية بوصفها تجربة روحية شريطة إفراغها من محمولها الديني أو ما يسميه مدونتها الإعتقادية "[25].

والملاحظ أن الرمز الصوفي يشكل حضورا مزدوجا في الممارسات النصية الشعرية والفكرية لأدونيس حيث يشتغل التراث الصوفي بقوة وكثافة في ثناياها ، من جهة أخرى اشتغل الرجل على إقامة علاقة وطيدة بين ما هو شعري وبين ما هو صوفي ، ليغدو الانفتاح الحدسي على التصوف انفتاحا معرفيا ، مما جعل أدونيس بممارسة الحفر في خبايا هذا التراث مع تركيزه على كل ما هو هامشي ومختلف ." فهو وريث الحركات الرافضة في الإسلام أو الخارجة على أنماط التفكير والممارسة التي كانت سائدة ، وما زالت آثارها محفورة على نحو عميق في حاضرنا ، إنّ نزعة الشك لديه إزاء كفاية العقل أو التنظير على مختلف أشكاله ، تجد جذورها في الصوفية بصورة خاصة "[26].

وإذا كان اهتمام أدونيس بالصوفية كفكرة يعزز مشروع نقد الرؤية الدينية فإنه يرى أنها حركة ثورية تقع في محور المعارضة ،فقد سارت في اتجاه

يختلف عن ما هو سائد في الثقافة الفقهية وبالتالي فإن معنى " التحول" هو المرجعية التي يقرأ بها أدونيس المتن الصوفي ، والتراث الصوفي تأسيسا على ذلك يصبح : " أرض التحول ، أرض التأويل والمعنى الغائب ، فقلق الشاعر في البحث يلتقي في هذه النقطة مع قلق الصوفي ، فيستدعي الموروث الصوفي ثم يحمله شحنات رمزية تخدم مرجعيته الأصلي ، مرجعية التحول والرفض "[27]

وعليه فالعلاقة الموجودة بين الرؤيا الصوفية والرؤية الأدونيسية يفسرها محاولة أدونيس في إيجاد لمنحاه التحولي التجاوزي عمقا مرجعيا له شرعيته التراثية ، والرؤية الصوفية بوصفها متجذرة في التاريخ شكلت هذا العمق عنده ليؤسس حداثته بذلك عبر هذا التمثل والاتصال بهذا المرجع

إن قراءة أدونيس للتراث العربي بمنطق المساءلة والمحاورة جعلته يرى أن اتجاه الشعر العربي الحديث نحو أن يكون شاملا ، وأن يكون إلى ذلك " مغامرة في الكشف والمعرفة ، لا يحمل إزدراء للماضي ، كما لا يعني الانقطاع عن التراث "[28]، لتصبح العلاقة بين الشاعر وتراثه علاقة خلق وإضافة ، ويكون الارتباط " ارتباط تقابل وتوازي وتضاد ،لأن التراث هو عبارة عن مجموع مؤلف من قوى شديدة التنوع والتناقض."[29] وهنا يرفض

المفكر أن يكون التراث قيدا أو حدا قسريا ، وإنما نتعامل معه على أساس اعتباره " رغبة نفسية وحاجة وجدانية ، إنه قاعدة إبداعية من جهة وفكرية من جهة أخرى ، إنه التفجر الإشراقي "[30].

وعلى هذا الأساس يري أدونيس أن القول بالتجاوز والتخطي لا يعني إلغاء الأصل ورفضه، وإنما هو رفض للحواجز والشوائب وتخط للقيود والشروط ، وهنا يقول أدونيس :" حين نقول بالرفض والتجاوز أو التخطي كنا نعني ، على الأخص القراءات التي فهمت الأصول بطرق لم تؤد إلى الكشف عن حيويتها وغناها بقدر ما أدت إلى قولبتها وتجميدها"[31].

وبالتالي فموقف أدونيس من التراث موقف واع ،وقد سعى إلى جعل وعيه هذا جزءا من رؤيته الشعرية الفنية ، والفكرية والفلسفية ، التي تعرض نفسها ضمن آلية التحول التي دعا إليها .غير أن هذا الموقف من التراث لا يفترض تحويله إلى موضوع الرؤية المعرفية في ممارسات أدونيس ولا سلطة فكرية في منجزه العام ، وهكذا فإن هذا الموقف محكوم بتصوره للإبداع، وهو تصور يرى في الإبداع فاعلية البناء على أسس جديدة مغايرة ، مما يجعل منه صيغة معادلة لتصور الخلق ، وهذا ما يجعل الباحث في صلب نظرية الخلق المستمر والخلق الجديد دائما .

وقد تحدث الناقد في إطار قراءته للتراث قد حدد معوقات االحداثة العربية في كتابيه " **بيان الحداثة** "و" **الشعرية العربية**" وقد سماها أوهام الحداثة وفي هذا أشار إلى أن تحديد مفهوم الحداثة العربية صعب المنال فالحداثة حسب رأيه " في المجتمع العربي إشكالية معقدة ، لا من حيث علاقاتها بالغرب وحسب ، بل من حيث تاريخه الخاص أيضا ، بل يبدو لي أن الحداثة هي إشكاليته الرئيسية " مضيفا أن " الحداثة الشعرية العربية لا تقيم إلا بمقاييس مستمدة من إشكالية القيم القديم والمحدث في التراث العربي ".

يتحدث أدونيس عن أوهام الحداثة ، في بيانه الصادر عنها محددا إياها في خمسة أوهام سنحاول أن نلخصها كما جاءت كنقطة هامة تكشف طبيعة تعامل أدونيس مع التراث وهي [32]:

أ/ **الزمنية :**

وهي نظرة شكلية تلحق النص الشعري بالزمن ، تميل إلى ربط الحداثة بالعصر الراهن ، فتؤكد على اللحظة الزمنية لا على النص بذاته ، وخطأ هذه النظرة هو إغفالها أن حداثة الإبداع الشعري غير متساوقة بالضرورة مع حداثة الزمن ، ويشير أدونيس إلى أن هناك شعرا كتب في زمن ماض

ولا يزال مع ذلك حديثا ، فالشعر لا يكتسب حداثته _ بالضرورة _ من مجرد زمنيته وإنما الحداثة صفة تكمن في الشعر ذاته.

ب/ **المغايرة:**

من هذا المنظور فإن التغاير مع القديم في موضوعاته وأشكاله هو الحداثة أو الدليل عليها، وهذه نظرة آلية تقوم على فكرة إنتاج النقيض، وهي شأن النظرة السابقة تحيل الإبداع إلى لعبة في التضاد، تلك تضاد الزمن بالزمن ، وهذه تضاد النص بالنص مما يبطل الشعر ومعنى الإبداع .

ج/ **المماثلة:**

تظهر في نظرة البعض إلى أن الغرب هو مصدر الحداثة اليوم بمختلف مستوياته، وتبعا لذلك لا تكون الحداثة إلا في التماثل معه ، ومن هنا تنشأ معيارية يصبح فيها مقياس الحداثة في الغرب ، وفي الحقيقة مثل هذه المماثلة تشكل استلابا كاملا ، ويشير أدونيس إلى أن المماثلة مع الخارج ليست الأكثر إغراقا في ضياع الذات لشعر المماثلة في الموروث التقليدي.

د/ **التشكيل النثري:**

وهو استغراق في (المغايرة _ المماثلة) فيه يرى من يمارسون الشعر نثرا أن الكتابة بالنثر ، من حيث هي تماثل كامل مع الكتابة الشعرية الغربية وتغاير كامل مع الكتابة الشعرية العربية ، وإنّما هي ذروة الحداثة ويذهبون إلى القول بنفى الوزن بوصفه رمزا لقديم يناقض الحديث ، وهو تأكيد على الأداة دون الشعر ، ذلك أن النثر والوزن كلاهما أداة ، ولا يحقق استخدامه بذاته الشعر والحديث عن قصيدة نثر عربية يفترض الانطلاق من فهم التراث العربي الكتابي واستيعابه بشكل عميق .

هـ/ **استخدام المضمون :**

انسياقا وراء وهم الزمنية يزعم البعض أن كل نص شعري يتناول إنجازات العصر وقضاياه ، وهو بالضرورة نص حديث ، وهذا زعم متهافت ، فكما أن الحداثة النص الشعري ليست في مجرد زمنيته ، أو مجرد تشكيليته، فإنها كذلك ليست في مجرد مضمونيته .

وأدو نيس إذ يجعل من الحداثة رؤية كونية يركز فيها على جانب الإبداع فيقول :" لا يقيم الشعر بحداثته، بل بإبداعيته ، إذ ليست كلّ حداثة إبداعا ، أما الإبداع فهو أبديا حديث " [33] والحداثة بوصفها رؤية معرفية

لها حقيقتها وغايتها تخرج في رأي أدونيس من رحم القديم لتقوم الخلل في مسيرته ، إذ كل مسيرة لا تعيد النظر في خطاها إلى التحجر وتتلبس ومبادئها بصدأ الاستعمال والميل إلى تقديس منجز الأسلاف في حين إذا كان الجدل بين الماضي والحاضر، أو بين القديم والجديد هو مضمون العلاقة فقد حصل للوعي تمثل معنى الحداثة .

وهنا تصور أدونيس للحداثة العربية انطلاقا من ضرورة الاقتراب من الماضي وقراءته ضمن آلية السؤال والبحث:" إن ما ينبغي أن نتعلمه ممن أنتجوا لنا المعرفة الماضية، إنما هو ضرورة إنتاج رؤيا جديدة ' ونظام جديد من المقاربة والمعرفة هو أن نكلمهم ، لا بتكرارهم ، بل باللهب الذي حركهم ، لهب السؤال والبحث ، واكتناه العالم والإنسان وهذا يقتضي سؤالهم ومواجهتهم ، وهذا دون ذلك لا نقدر أن ننتج معرفة عربية تترابط في سياق تاريخي واحد ، هكذا يكون إنتاج المعرفة تجاوزا أ أي تكون الحداثة في إنتاج المعرفة من مستلزمات القديم ، جوهريا بل تكون الحداثة جوهريا ضمان القديم لحظة كونها تعارض معه ، وفي هذا المستوى لا يمكن للشاعر العربي أن يكون حديثا حقا ما لم يتمثل القديم أي ما لم يختبره كيانيا "[34]

وهنا يشير الناقد أن البلوغ إلى الحداثة العربية يتطلب الانطلاق من الماضي، لأجل فهم الحاضر واستشراف المستقبل فالحداثة في رأيه ليس الحنين إلى التاريخ والبكاء على أطلاله ولكن إقامة الحوار معه من أجل البحث عن الجوانب المضيئة فيه.

من خلال ما سبق يمكننا استخلاص عدة نتائج مفادها :

ـ لقد تميز أدونيس بثقافة واسعة وغزيرة مستمدة من التراث العربي(التراث الصوفي العربي) وأخرى مستعارة من الآخر (الغرب) الأمر الذي جعله الرائد الأول للحداثة الشعرية في الوطن العربي ، فقد مجده البعض واعتبروه من الباحثين الذين اخرجوا الدراسات العربية من الغربية على الدرس العربي ولم يقراها جيدا ، وان ثورته كانت سلبية أعاقت النص العربي وعرته من مضمونه وروحه وهويته.

إن إعادة قراءة التراث قراءة جديدة . هي التي جعلت أدونيس يكتشف الحداثة السياسية فيه " الخوارج ، الزنج ، القرامطة" والحداثة الفكرية " المعتزلة ، الصوفية ، ابن رشد " .وهنا للإشارة فالحداثة الغربية هي التي أرشدت _أدونيس _ إلى الحداثة في التراث العربي.

وعليه فالحداثة التي يدعوا إليها المفكر لا تشكل قطيعة جذرية مع التراث ، إنما هي تواصل إبداعي ولغوي مع التراث، وهي بذلك تستمد قوتها وحضورها إن ما ترفضه هذه الحداثة هو ان تكون مجرد مِرآة عاكسة له. مما دعت الحداثة عنده إلى إعادة قراءة الأصول "القرآن ، الحديث الشريف ، الشعر الجاهلي" قراءة حداثية .

لكن للأسف أدونيس لم يتجاوز سلطة الغرب الذي استمد منه أرائه النقدية الحداثية. ولم يتحرر كذلك من سلطة التراث الذي لازمه قدحا من الزمن _ فبقي بين البرزخين ، حبيس الاثنين لا هو ينتمي إلى هذا ولا إلى ذاك ، وهذه المشكلة في الحقيقة ليست شخصية ، بل إنها تكون مشكلتنا جميعا ، لذلك يأتي الوقت لنقول إن المعرفة نتاج بشري إنساني عام وأنه لابد من الاعتماد على عقولنا لكي نتخلص من هذه المشكلة – أحادية الفكر– " بحقائقه الثابتة وقوالبه المسبقة وحتميا ته القاطعة ، كما نتجاوز التقسيمات العرقية والدينية القاتلة إلى عقل عربي وغربي أو إسلامي ثم سني وشيعي .....الخ ، فالأفكار الخلاقة والخصبة لا تخص قوما دون قوم ، وما من أحد بقادر على الجزم بأن منطقه هو منطق الطائفة الناجية ، وما من فكر بقادر على أن يتحول إلى مطلق يقيني أو قيمة مقدسة لا زمنية وإنما هي طاقة الإنسان على أن يتحول بها ويحولها ، بقدر ما هي قدرتها على

الانتشار والتداول لفتح مجالات للتعايش والتبادل والتفاعل "[1]وذلك لأن الثقافة نتاج بشري إنساني شامل يؤثر ويتأثر حتي يضمن لنفسه الديمومة والاستمرارية والخلود في إطار حوار حضاري متبادل و بناء.

هوامش الدراسة:

[1]– عبد العزيز حمودة : المرايا المحدبة ،عالم المعرفة ، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب ، الكويت، ص 339

2– من مقال : وقفات في الثابت والمتحول عند أدونيس / منشورات " محاور " بتاريخ 25/12/2005، نقلا – عن محمد فلاح ، أدونيس تحت المجهر ص 28.

3– أدونيس : الثابت والمتحول ، ج1،ط8، دار الساقي ، بيروت ، ص 104.

4– غاستون باشلار : جدلية الزمن ، تر : خليل أحمد خليل ، المؤسسة الجامعية للنشر ، بيروت ، ص 28.

5– كمال أبو ديب : ثقل التاريخ وشعره ابتكار العالم ، مجلة الأقلام ، عدد 01، سنة 1989، ص 14

6 – أدونيس : زمن الشعر ، دار العودة ، بيروت 1972، ص 167..

7– أدونيس: مقدمة للشعر العربي، دار الساقي، بيروت ، (دط)، 2009، ص 38.

8– أدونيس : سياسة الشعر ، دار الآداب ، بيروت ، ط2، 1996، ص 25.

9– مصطفى الفيلالي : الصحوة الدينية الإسلامية في الحركات الإسلامية المعاصرة ، مركز دراسات الوحدة العربية ، ط2، بيروت ، 1989، ص 350.

10– أدونيس : زمن الشعر ، ص 60.

11 – خليل ذياب أبو جهجهة : الأدب بين التراث والروافد الأجنبية ..دراسات عربية ، عددان 7، 8، 25 يونيو 1989، ص 95.
12– أدونيس : زمن الشعر ، ص205، 251.
13– محمد شوقي الزين : إزاحات فكرية – مقاربة في الحداثة والمثق ، منشورات الاختلاف ، الجزائر ، ط1، ص 32.
14– أدونيس : الثابت والمتحول ، دار الساقي ، بيروت ج3، 2002،ص 23.
15– المرجع نفسه، ص 29.
16– المرجع نفسه، ص 25.
17– المرجع نفسه ، ص 28.
18– تركي الحمد : الثقافة العربية أمام تحديات التغيير ، دار الساقي ، ،1993، بيروت – لبنان ، ط1، ص 81.
19– أدونيس : الآثار الكاملة ، ص 209.
20– ألبريس : الاتجاهات الأدبية الحديثة ، تر : جورج طرابيش ، سلسلة زدني علما ، منشورات عويدات ، بيروت– لبنان ، 1980، ص128.
21– عبد العزيز حمود : المرايا المحدبة ، ص 88.
22– أدونيس : الثابت والمتحول ، ج3، ص 205.
23 المرجع نفسه ، ص205
24– جبرا إبراهيم جبرا : التناقضات في " المسرح والمرايا " شعر ، العدد 39، جانفي 1968 ، ص 114.
25– سفيان زدادقة : الحقيقة والسراب ،الدار العربية للعلوم ناشرون ، بيروت ، ط1، 2008،ص 457، 458.
26– أدونيس : الصوفية والسريالية ،دار الساقي ، بيروت ، ط2، 1995 ،ص 14، 15.

27- عادل ظاهر : الشعر والوجود ، دار المدى ، دمشق ، ط1، 2000، ص 55.
28- سفيان زدادقة : الحقيقة والسراب ،ص 525.
29- أدونيس : زمن الشعر ، ص44_45.
30- المرجع نفسه، ص 45.
31- أدونيس: الشعرية العربية ، دار الآداب ، بيروت ، ط2، 1989،ص 110.
32- المرجع نفسه ، ص 56.
33- أدونيس : بيان الحداثة ،ص 51.
34- علي حرب : أزمنة الحداثة الفائقة ، المركز الثقافي العربي ، الدار البيضاء _ المغرب ، 2005، ص 121.